

هل تبطئ جائحة كورونا الوصول المفتوح؟ حوار عن الكتب والدوريات

أليشيا وايز، فرانسيس بينتر



المخلص:

يتخذ هذا المقال شكل حوار بين مؤلفتين تعملان في مجال النشر العلمي، إحداهما مع الدوريات وناشري الجمعيات العلمية والأخرى مع الكتب والمطابع الجامعية الصغيرة، لبحث ما إذا كانت جائحة كوفيد-19 ستبطئ الوصول المفتوح، وما إذا كانت الإجابة تختلف بين الكتب والدوريات. وتستعرض المؤلفتان دور سياسات الجهات الممولة والخطة (S) والاتفاقيات التحويلية في دفع الوصول المفتوح للدوريات، ثم تناقشان تحديات الكتب الأكاديمية، ومنها ارتفاع تكاليف إنتاجها، ودورها في الترقية الأكاديمية، وضعف البيانات الوصفية للكتب، وضغط الميزانيات على المطابع الجامعية الصغيرة. كما تعرضان مؤشرات إيجابية، أبرزها ارتفاع استخدام الكتب المفتوحة والاستشهاد بها، ومبادرات البنية التحتية المفتوحة التي يقودها المجتمع. وتخلصان إلى أن المستقبل يصعب التنبؤ به، وأن على الناشرين التحلي بالمرونة والإبداع وتقبل التغيير والمخاطرة المحسوبة.

الكلمات المفتاحية: الوصول المفتوح، جائحة كوفيد-19، الخطة (S)، الاتفاقيات التحويلية، الكتب الأكاديمية المفتوحة

أليشيا: إذن، أين نحن الآن؟ ليس الوصول المفتوح ظاهرة عالمية واحدة متماسكة، على الأقل في هذه المرحلة. إنه حركة عالمية، ولهذا السبب تتابع اليونسكو سياسات الوصول المفتوح في 156 بلدًا حول العالم، [1] وتختلف طبيعته ووتيرته من منطقة إلى أخرى. والوصول المفتوح أكثر تقدمًا في مقالات الدوريات منه في الكتب، وأكثر تقدمًا في الكتب منه في الأنواع الأخرى من المحتوى الأكاديمي، ومنها وقائع المؤتمرات. وقد تقدّم بوتيرة أسرع في مجالات العلوم والتقنية والهندسة والطب (STEM) منه في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية (HSS).

فرانسيس: ومع أن الدفع في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية أبطأ، فإنه يأتي من الجهات الممولة للبحث والمكتبات والمؤسسات البحثية، لا من أجل تغيير نماذج العمل فحسب، بل أيضًا من أجل خفض حقيقي في التكاليف المرتبطة بنشر الكتب مع الحفاظ على الجودة. والنتيجة مزيج من التحدي والفرصة لجميع أصحاب المصلحة في الاتصال العلمي. وقد أبرزت جائحة كوفيد-19، أكثر من أي شيء آخر، أن التغيير قد حلّ بنا.

أليشيا: نعم، فقد أثبتت سياسات الجهات الممولة للبحث أنها محرك قوي للتغيير، وبدأت سياسات الوصول المفتوح تتبلور رسميًا على المستوى الوطني في المملكة المتحدة خلال عام 2012 [2] وفي الولايات المتحدة خلال عام 2013. [3] ومنذ عام 2016 تنامي الزخم بآطراد في أوروبا، مع بيان مشترك لوزراء العلوم في الدول الأعضاء يدعم التحول الكامل إلى الوصول المفتوح بحلول عام 2020. [4] وكان نمو الوصول المفتوح الذهبي (gold OA) قد أخذ يتباطأ في الدوريات، [5] وكان تغيير ذلك دافعًا رئيسًا وراء الخطة (Plan S) التي أطلقت في سبتمبر 2018. والخطة (S) مبادرة من تحالف (cOAlition S)، وهو اتحاد من الجهات الممولة ووكالات البحث تنسقه منظمة (Science Europe) وتدعمه المفوضية الأوروبية ومجلس البحوث الأوروبي.

وقد نجحت الخطة (S) في إحياء النقاش من جديد، وتركيز الاهتمام، وإضفاء طابع إلحاح على تحدي تغيير هذا الوضع. [6] كما أدت إلى وعي دولي أكبر بكثير بالاتفاقيات التحويلية (transformative agreements) التي قد تحفز نموًا في الوصول المفتوح أكبر مما تحققه الخطة (S) نفسها.

فالمكتبات، ولا سيما المكتبات الأوروبية، ومؤخرًا المكتبات في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل، [7] تجرب منذ عام 2016 طرائق لتحويل أنشطة التزويد لديها من الوصول للقراءة فقط إلى توفير خدمة القراءة والنشر معًا. وتعيد هذه الاتفاقيات التحويلية للوصول المفتوح، كما تُسمى، توظيف الإنفاق المؤسسي القائم لدى الناشرين في إتاحة المحتوى. وهي نماذج قوية لأن المكتبات واتحادات المكتبات توفر النصيب الأكبر من التمويل في مشهد النشر الحالي. فإذا حوّلت مدفوعات المكتبات إلى دعم الوصول المفتوح، أمكن للناشرين أيضًا أن يتحولوا إلى الوصول المفتوح الكامل، وأمكن لناشري الوصول المفتوح الكامل أن يزدهروا.

فرانسيس: أما في الكتب، فإن الوصول المفتوح يواصل تسارعه أيضًا، وإن كان ينطلق من قاعدة أصغر. ويختلف مسار ذلك بين الكتب والدوريات اختلافًا كبيرًا، ويعود ذلك جزئيًا إلى كثرة الناشرين الصغار في مجال الكتب العلمية المتخصصة (المونوغرافات). ثم هناك السياق الاقتصادي الأوسع الذي يجري فيه البحث والتدريس الآن. وباختصار، يستمر الاستثمار في بحوث العلوم والتقنية والهندسة والطب في الارتفاع، في حين يتعرض الاستثمار في التدريس والبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية لضغط حقيقي. ومع ذلك، تعتزم الجهات الممولة في تحالف (cOAlition S) أن تُلزم بأن تكون الكتب وفصول الكتب مفتوحة الوصول بحلول عام 2024، [8] وعندها ينبغي أن نرى عددًا أكبر بكثير من كتب العلوم الإنسانية والاجتماعية المفتوحة.

وثمة تحديات أكبر أيضًا، وهذا السياق مهم. فمفهوم الجامعة التقليدية وبنيتها التحتية برمتها يتعرضان منذ مدة لهجوم من جهات كثيرة ولأسباب مختلفة. وتجري الآن إعادة ترتيب سيكون فيها رابحون وخاسرون، لكن آثار التقليص لن تطل الجميع بالتساوي. ففي كثير من التخصصات ستكتمش ميزانيات البحث، مما يستلزم إعادة التفكير في طريقة بناء بُناها التحتية المعرفية، وفي الطريقة التي تختارها لإيصال المعرفة الجديدة التي تنتجها ونشرها. وسيقود الجيل الأصغر سنًا الذي يعرف كيف يستفيد من الإمكانيات الرقمية كثيرًا من ذلك.

أليشيا: إن القلق من ارتفاع الأسعار يفدّي مخاوف أوسع إزاء كل ما يعزز علامة الناشر بوصفها مؤشرًا بديلاً على الجودة، ويعزز المنشورات بوصفها وحدة أساسية لتقييم الجودة، ويعزز القوة السوقية القائمة للناشرين وعوائدهم المالية.

وهذا التركيز المفهوم على كبح التكاليف داخل المكتبات يمثل تحديًا حقيقيًا في وقت يستمر فيه الاستثمار في البحث في الازدياد، ولا سيما في مجالات العلوم والتقنية والهندسة والطب، كما يزداد عدد الباحثين والمقالات البحثية. ويستثمر الناشرون صلاتهم بمجتمع الباحثين لتقديم منتجات وخدمات جديدة.

أما بالنسبة إلى الدوريات، فثمة الآن بنية تحتية راسخة، وزخم من الجهات الممولة للبحث عبر السياسات الملزمة، وزخم من المكتبات في قرارات الشراء لديها، وزخم من ناشطي الوصول المفتوح، والأهم من ذلك قدر كبير من التمويل. وهناك مشهد حيوي لنماذج عمل جديدة حول اتفاقيات الوصول المفتوح بين المكتبات، نيابةً عن المؤلفين والقراء في حرمها الجامعية، والناشرين.

فرانسيس: أنا أقل تفاؤلًا بشأن الكتب. فهي أغلى إنتاجًا مما ينبغي. ومن غير المعقول إخضاع جميع المونوغرافات لعملية نشر فاخرة من طراز «رولز رويس». ويعود جزء من ذلك إلى بطء تبني التقنية مقارنةً بما حدث في الدوريات، لكنه أيضًا نتيجة لدور المونوغرافات في عملية الترقية الأكاديمية. علينا أن نتخلى عن قيام الأوساط الأكاديمية بإسناد عملية التقييم إلى الناشرين استنادًا إلى عدد محدود من المقاييس، مثل المكانة المتصورة للناشر - الذي يتوقع منه بعد ذلك أن يسعى إلى بيع نسخ أقل بأسعار أعلى لتغطية استثماره الخاص - وكذلك الاعتماد على الوسطاء اللازمين لبيع هذه المنشورات الطويلة. فالمونوغرافات ببساطة ليست مربحة بقدر الدوريات. وبالنظر إلى أن المونوغرافات أهم بكثير لمجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية منها لمجالات العلوم والتقنية والهندسة والطب، يبدو من الشذوذ أن تصبح الكتب أغلى ثمنًا في وقت تنكمش فيه ميزانيات المكتبات. وفي نهاية المطاف سيُنشر عدد أقل من المونوغرافات، وسيسقط عدد كبير من المطابع الجامعية الأصغر في الطريق، أيًا كان نموذج العمل.

أليشيا: هل ترين أي نقاط مضيئة بالنسبة إلى الكتب؟

فرانسيس: نعم، أرى ذلك لأسباب كثيرة، لكنني سأحدث هنا عن سبب واحد فقط - الاستخدام. فشركة (Springer Nature)، من بين آخرين، ترصد باستمرار نمو استخدام الكتب المفتوحة الوصول. وتفيد بأن الكتب المفتوحة، مقارنةً بالكتب المغلقة، تحظى باستشهادات أكثر بـ 2.4 مرة وب عشرة أضعاف التنزيلات. [9] ويجري الآن مزيد من العمل حول كيفية جمع إحصاءات الاستخدام وتفسيرها، لكن يتضح أن الأكاديميين ليسوا وحدهم من يصلون إلى هذه الكتب، إذ أظهر أحدث تقرير لـ (Springer)، في سبتمبر 2020، أن التنزيلات من الويب المفتوح («التنزيلات المجهولة») تبلغ عمومًا ضعف التنزيلات من نقاط الشبكات المؤسسية («التنزيلات المسجلة»). وقد ازداد استخدام المونوغرافات ازديادًا كبيرًا عندما أتاح الناشر الأكاديميون محتوى منشوراتهم مجانًا خلال الأشهر الأولى من الجائحة، وإن كان الناشر بطبيعة الحال ما يزالون يستوعبون إحصاءات الاستخدام ويحلونها. فالوصول المفتوح بالغ الأهمية لا لنشر المعرفة الجديدة داخل المجتمع العلمي فحسب، بل أيضًا لإتاحة ثمار البحث الأكاديمي للآخرين، ولا سيما لمن ينقلون ما يقوله المتخصصون إلى لغة في متناول سكان الكوكب. وأعتقد أن هذا سيزداد أهمية مع رغبة دافعي الضرائب في رؤية قيمة لأموالهم من مجتمع البحث.

وهنا فرص أمام الناشرين لاستخدام الوصول المفتوح في زيادة صلة منشوراتهم برفاه الإنسان. ففي عام 2011 نشرنا في (Bloomsbury Academic) كتابًا مفتوح الوصول، ولأنه كان مفتوحًا عشر عليه مصادفةً نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) - اللساني والفيلسوف - وتحدث عنه في محاضراته العامة. والباقي معروف: كتاب حقق مبيعات هائلة غير متوقعة في طبعته الورقية الشعبية. وكان عنوانه، الذي لم يكن مفهومًا جيدًا آنذاك حتى إن مندوبي المبيعات تردّدوا بشأنه، هو (The Precariat) (البريكاريا)، وهو الآن اختصار يدل على العمل الخالي من

القدرة على التنبؤ ومن الأمان، كما في عقود «الساعات الصفية». ولولا إتاحة الكتاب بالوصول المفتوح، لكان معرّضاً لأن يصبح غير مرئي خارج نطاق أكاديمي مغلق. وثمة الآن أمثلة أخرى كثيرة جداً على الانتشار الواسع والأثر الكبير.

أليشيا: يمكن للوصول المفتوح أن يسهم في تسريع العلم وزيادة ظهور المؤلفين ومؤسساتهم والجهات الممولة لهم وأثرهم، ولذلك يُرجّح أن ينمو. فالنشر الأكاديمي لم يكن قط مقتصرًا على نقل المعلومات، بل كان يتعلق بالمكانة أيضًا.

ولنتحدث أيضًا عن التقنية والأدوات والخدمات الجديدة. يبدو أن ثمة حماسًا متزايدًا للمنصات المفتوحة، بدلًا من الدوريات المفتوحة، بوصفها المنصة المفضلة لنشر المقالات البحثية. [10] وهناك إمكانات مثيرة للابتكار في الخدمات البحثية من خلال تسخير المحتوى المفتوح بتقنيات مثل الذكاء الاصطناعي والبيانات الضخمة. وهناك بالطبع أيضًا جملة من المخاوف المتعلقة بالإنصاف الاجتماعي والعدالة الاجتماعية حول الذكاء الاصطناعي ينبغي معالجتها. وفي هذا السياق، استرعت اهتمامي نقاشات في ألمانيا وهولندا، على سبيل المثال، حول المبادئ التي ينبغي أن توجّه الشراكات العامة والشراكات بين القطاعين العام والخاص في البنية التحتية للبحث. [11] وثمة تحوّل بعيدًا عن الأمل في أن توفر السوق حلولًا للاحتياجات المتغيرة، وشعور بأن البنية التحتية للبحث ينبغي أن يصممها المجتمع ويحكمها.

فرانسيس: أوافقك. فمبادرات مثل (Invest in Open Infrastructure) [12] و(COPIIM) [13] و(OPERAS) [14] مثيرة للاهتمام حقًا، وكلها تسهم في هذا الجهد في مجال الكتب. ومع ذلك، ثمة عمل كثير ينبغي أن يقوم به جميع ناشري الكتب لتحسين بياناتهم الوصفية. وأظن أن البيانات الوصفية للكتب متأخرة عن البيانات الوصفية للدوريات لأن الرقمنة جاءت لاحقًا، ولأن العدد الأكبر من الصيغ والأساليب أكثر تعقيدًا، ولأنه لا توجد منصة واحدة تُكتشف الكتب من خلالها ويُتاح الوصول إليها وتُشترى. وسيسهم إصلاح فوضى البيانات الوصفية هذه في خفض التكاليف وتيسير الاكتشاف (discovery). وبالطبع فإن مشروعات مثل (Metadata 2020) [15] وعمل منظمة (NISO) [16]، فضلًا عن غيرها، تعمل كلها على تمكين الكتب من اللاحق بالركب.

وبعيدًا عن هذه الشكوى الخاصة بي، أعتقد حقًا أنه مع إتاحة مزيد من المحتوى التأسيسي في المونوغرافات بالوصول المفتوح، سيُلهِم مزيد من الناس، كما نأمل، لمواصلة الوصول إلى رصيد المعرفة العالمي واكتشافه. وفي (CEU Press) أطلقنا للتو مبادرة للوصول المفتوح تُسمى (Opening the Future) (فتح المستقبل)، [17] نأمل أن نسهم من خلالها في ذلك تحديدًا.

أليشيا: هذه تحديات كبيرة ومثيرة حقًا. فالنماذج الجديدة مثل هذا النموذج، وحل ما تسمّيه فوضى البيانات الوصفية، أجزاء حاسمة من العمل الأوسع اللازم لصياغة خدمات علم مفتوح مبنية على المعرفة المفتوحة. وبسبب كوفيد-19، ستكون ميزانيات المكتبات إجمالًا أقل بالنظر إلى ضغوط الميزانية التي تواجهها الجامعات، ومع ذلك ثمة عمل إبداعي هائل ينبغي أن تقوم به شركات التقنية والناشرون والجامعات والمكتبات للاستفادة القصوى من الأموال المتاحة في دفع كلٍّ من ابتكار الخدمات للعاملين في مجال المعرفة ومزيد من الانفتاح.

فرانسيس: مع كثرة محركات التغيير، ليس من السهل التنبؤ بالمستقبل. وسواء أكانت الكأس نصف ممتلئة أم نصف فارغة، فإن نافخ زجاج عام 2020 ما يزال يشكّل الإناء بينما نرتشف منه. والمرونة والإبداع وتقبّل التغيير وشيء من المخاطرة المحسوبة أمور أساسية للناشرين.

المراجع:

1. Entry page for UNESCO's Global Open Access Portal, <http://www.unesco.org/new/en/communication-and-information/portals-and-platforms/goap/> (accessed 29 October 2020).
2. Working Group on Expanding Access to Published Research Findings, Accessibility, sustainability, excellence: how to expand access to research publications, June 2012, <https://www.sconul.ac.uk/sites/default/files/documents/finch-report-executive-summary.pdf> (accessed 29 October 2020).
3. White House Office of Science Technology and Policy Public Access Forum, last modified January 9, 2017, <https://obamawhitehouse.archives.gov/administration/eop/ostp/library/publicaccesspolicy> (accessed 29 October 2020).
4. European Commission, "World's science ministers call for open access to scientific data," <https://cordis.europa.eu/news/rcn/21526/pl> (accessed 29 October 2020).
5. Universities UK, Monitoring the Transition to Open Access, December 2017, <https://www.universitiesuk.ac.uk/policy-and-analysis/reports/Documents/2017/monitoring-transition-open-access-2017.pdf> (accessed 29 October 2020).
6. European Commission, Progress on Open Science: Towards a Shared Research Knowledge System, April 2020, https://ec.europa.eu/research/openscience/pdf/ec_rtd_ospp-final-report.pdf#view=fit&pagemode=none (accessed 29 October 2020).
7. EIFL, "IWAP sign free Read & Publish agreement," October 26, 2020, <https://www.eifl.net/news/eifl-iwap-sign-free-read-publish-agreement> (accessed 29 October 2020).
8. "Plan S Principles," https://www.coalition-s.org/plan_s_principles/ (accessed 9 November 2020).
9. Springer Nature, "Diversifying readership through open access," <https://www.springernature.com/gp/open-research/journals-books/books/diversifying-readership-through-open-access> (accessed 29 October 2020).
10. European University Association, Read & Publish contracts in the context of a dynamic scholarly publishing system, 15 July 2020, <https://www.eua.eu/resources/publications/932:read-publish-agreements.html> (accessed 29 October 2020).
11. Deutsche Forschungsgemeinschaft, National Research Data Infrastructure, https://www.dfg.de/en/research_funding/programmes/nfdi/index.html (accessed 29 October 2020); Association of Universities in the Netherlands (VSNU), Consultation on Guiding

Principles on Management of Research Information and Data, 18 May 2020, https://www.vsnu.nl/en_GB/news-items/nieuwsbericht/596-consultation-on-guiding-principles-on-management-of-research-information-and-data.html (accessed 29 October 2020).

12. Invest in Open Infrastructure, <https://investinopen.org/> (accessed 29 October 2020).
13. Community-led Open Publication Infrastructures for Monographs (COPIM), Open Access, Open Infrastructures, <https://www.copim.ac.uk/> (accessed 29 October 2020).
14. Open Scholarly Communication in the European Research Area for Social Sciences and Humanities (OPERAS), <https://operas.hypotheses.org/> (accessed 29 October 2020).
15. Metadata 2020, Share Metadata Stories Good and Bad, <http://www.metadata2020.org/> (accessed 29 October 2020).
16. NISO, E-Book Bibliographic Metadata Requirements in the Sale, Publication, Discovery, and Preservation Supply Chain (E-Book Metadata) Working Group, <https://www.niso.org/standards-committees/ebmd> (accessed 29 October 2020).
17. Central European Press, Opening the Future: A New Model for Open Access, <https://www.openingthefuture.net/> (accessed 29 October 2020).